مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار الخليجي
Gulf Dialogue Lab

أوراق ثقافية

الأصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة

نظرة في فلسفة التاريخ

أ.د. علي محافظة أستاذ التاريخ الحديث - الأردن

يونيو – 2025

> استعمل سكان بلاد الشام الحروف الهجائية بين سنتي ١٧٠٠ و١٤٠٠ قبل الميلاد، فكان ذلك اكتشافاً عظيماً ساهم في تطور الفكر الإنساني، ونشوء الحضارات، وتبادل الثقافات بين الشعوب والأمم

1

التاريخ هو ذاكرة الشعوب والأمم والجماعات التي تتألف منها البشرية، وماضيها بكل ما فيه من حقائق وأساطير وأوهام، والحاضر في حياة هذه الجماعات البشرية وليد ماضيها، وأصول الحاضر بمظاهره المختلفة، ومشكلاته السياسية، ونظمه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية موجودة في الماضي

عاش البشر آلاف السنين على ضفاف الأنهار الدافئة، وفي أدغال الغابات، يبحثون عن الطعام، ويصطادون الحيوانات قبل أن يتعلموا الكتابة، واكتفوا برسم صور تلك الحيوانات على جدران الكهوف التي كانوا يأوون إليها، وكان أعظم تطور في حياتهم اكتشاف الكتابة المسمارية السومرية في بلاد الرافدين، والهيروغليفية في مصر في الألف الرابع قبل ميلاد المسيح، والكتابة الصينية بالمقاطع الصوتية، والكتابة السنسكريتية الهندية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. واستعمل سكان بلاد الشام الحروف الهجائية بين سنتي ١٧٠٠و١٤٠٠ قبل الميلاد، فكان ذلك اكتشافاً عظيماً ساهم في تطور الفكر الإنساني، ونشوء الحضارات، وتبادل الثقافات بين الشعوب والأمم

وباستعمال الكتابة بدأت كتابة التاريخ، وتسجيل الأحداث المهمة في حياة كل شعب وأمة وجماعة بشرية، وظهر المؤرخون الذين يبحثون عن الحقيقة في دراستهم للماضي، وأحرز المؤرخون العرب القدامى تقدماً على غيرهم من مؤرخي الأمم الأخرى منذ القرن الهجري الأول في جمع الروايات المختلفة للحدث التاريخي الواحد، وتطبيق أسس الحكم على صحة الأحاديث النبوية في الروايات التاريخية مثل: عدالة الراوي، وضبط روايته، واتصال سند الرواة، والسلامة من العلة، وأدرك العرب ما في التاريخ من عبر ودروس واختبارات بشرية مسجلة في جميع العصور، وقد قال الأديب والشاعر العربي عباس محمود العقاد

وباستعمال الكتابة بدأت كتابة التاريخ، وتسجيل الأحداث المهمة في حياة كل شعب وأمة وجماعة بشرية

من لم يعِ التاريخ في صدره •• لم يدر حلو العيش من مرّه

ومن وعى أخبار من قد مضى •• أضاف أعماراً إلى عمره

2

وقد سبق المؤرخ العربي المغربي عبد الرحمن بن خلدون المؤرخين الغربيين المحدثين في تعريف التاريخ، وبيان أهدافه وأهميته، فقال في مقدمة كتابه الموسوم باسم "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، الذي ألفه سنة ١٣٧٧م:

"أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون الذي تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار من الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"

> "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

وفي أوروبا الحديثة بدأ علم التاريخ في القرن التاسع عشر الميلادي على يد المؤرخين البريطانيين، والألمان، والفرنسيين. واقتضت دراسة الوثائق والنقوش والمخطوطات الإلمام بالعلوم المساعدة مثل علم الآثار (Archaeology)، وعلم النقوش (Epigraphy)، والنميات (النقود) (Numismatics)، والتسلسل التاريخي (الزمني) (Chronology) وغدا المؤرخ انتقائيًا في جمعه للوثائق والحقائق، وأدرك المؤرخون أن الوثائق لا تخبرنا عمّا حدث فعلًا، وإنما تخبرنا بما يقوله الراوي أو المؤلف عمّا حدث، أو ما أرادنا أن نعرف

وتأثر مؤرخو القرن التاسع عشر من الأوروبيين بالمبدأ الاقتصادي الليبرالي "دعه يعمل" (Laissez-faire)، وأصبحت مهمة المؤرخ ألا يسجل الحقائق، وإنما يعمد إلى تقييمها قبل النتيجة التي توصل إليها، فهو يخلق المعلومة التاريخية.وتأثر مؤرخو القرن التاسع عشر من الأوروبيين بالمبدأ الاقتصادي الليبرالي "دعه يعمل" Laissez-faire، وأصبحت مهمة المؤرخ ألا يسجل الحقائق، وإنما يعمد إلى تقييمها قبل النتيجة التي توصل إليها، فهو يخلق المعلومة التاريخية

ولفهم حوادث التاريخ وتقدير أهميتها، فإنه لا يكفي أن نعلم ما حدث؟ ومتى حدث؟ وإنما يجب أن نعلم زمن ما حدث، وربط الحادث بمكان الحدث، ومعرفة صفاته الخاصة به، ولا يكفي أن نعلم عن الناس وأسلوب حياتهم، وإنما يجب أن نعرف مجال نشاطهم وحيويته، وشروط حياتهم في أماكن مختلفة، وفي أدوار متباينة من وجودهم، ولا بد من دراسة الأرض التي يعيشون عليها، وتضاريسها الطبيعية، والنباتات، والكائنات الحية التي تتوطنها، ولا شك أن جهل بعض المؤرخين بهذه الحقائق أثار الريبة في أقوالهم وكتاباتهم، ولا عجب أن يقول شاعر العراق المبدع معروف الرصافي

فما كتب التاريخ في كل ما روت •• لقرائها إلّا حديث ملفّق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا •• فكيف بأمر الغابرين نصدّق

"غدا المؤرخ انتقائياً في جمعه للوثائق والحقائق، وأدرك المؤرخون أن الوثائق لا تخبرنا عما حدث فعلًا، ولكنها تخبرنا بما يقوله الراوي أو المؤلف عما حدث، أو ما أرادنا أن نعرف.

"قال علماء التاريخ المحدثون "شك المؤرخ رائد حكمته"، وقالوا "الأصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة"

وقد انتبه إلى تحيز المؤرخين العرب المسلمين الأوائل العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، فقال في مقدمة كتابه الآنف الذكر:

"وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وهمّوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنتقد الصحيح إذا تمقل، والعالم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل"

إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وهمّوا فيها وابتدعوها

3

والواقع فإن دراسة التاريخ عند العرب قد بدأت قبل غيرهم من الأمم لاتصاله بتفسير القرآن الكريم وجمع الحديث النبوي الشريف، بينما بدأ تعليم التاريخ في أوروبا في جامعة "أكسفورد" البريطانية لأول مرة سنة ١٨٧٢م

واقتضى تدريس التاريخ في الجامعات الأوروبية اتباع المنهج العلمي في جمع الحقائق وتحقيقها والاقتناع بصحتها، أي أن عليه ممارسة النقد التاريخي بنوعيه: النقد الخارجي للنص الذي يهدف إلى التثبت من صحته وأصالته وخلوه من الدس والتزوير، ومعرفة مؤلفه وتاريخه؛ والنقد الداخلي، أي تفسير ظاهر النص، وتفسير باطنه، والتعرف إلى عدالة المؤرخ، وضبطه وعدم تحيزه

والماضي الذي يدرسه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً، وإنما هو ماضٍ حي ما زال يعيش في الحاضر، وإعادة بناء الماضي في عقل المؤرخ يعتمد على دليل تجريبي، ولكنه ليس في حد ذاته عملية تجريبية، ولذا يعد التاريخ تجربة المؤرخ، وتدخل الحقائق التاريخية عقل المؤرخ الذي يسجلها، ويحتاج المؤرخ إلى فهم خيالي لعقول الناس الذين يؤرخ لهم، والمؤرخ ابن عصره، ويتأثر بأفكار عصره، والمفاهيم السائدة فيه، وبثقافة عصره

لدراسة التاريخ فوائد جمة، فهو يعلّم الحياة في عقدها ومتاعبها، وهو مدرسة لمعرفة طبائع البشر وأخلاقهم وقيمهم الاجتماعية، والتاريخ يساعدنا في فهم الحاضر ووضع خطط للمستقبل، وهو لا يعيد نفسه، فعلى الرغم من تشابه الأحداث التاريخية فإنها لا تتكرر

يساعدنا التاريخ في فهم الحاضر ووضع خطط للمستقبل، وهو لا يعيد نفسه، فعلى الرغم من تشابه الأحداث التاريخية فإنها لا تتكرر

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium